تطور الصورة النمطية للإسلام والمسلمين في الغرب

الدكتور / أحمد بن راشد بن سعيد
قسم الإعلام - كلية الآداب
جامعة الملك سعود

مقدمة

كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً حدثاً فاصلاً غيّر مجرى تاريخ البشرية، فقد أحدث تغييراً شاملاً في حياة الناس بدعوتهم إلى التوحيد، وإلى توجيه الطاقات واستخدامها لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله. وقد وقف مشركو مكة موقفاً معادياً للدعوة الجديدة، ورأوا فيها تهديداً لمصالحهم وتسفيهاً لأحلامهم ونسفاً لنظام حياتهم. واتخذت هذه المعاداة أشكالاً عديدة منها تكذيب الرسول ﷺ واتهامه بالسحر أو الجنون، ومنها الطعن في عدالة ونزاهة الداخلين في الدين الجديد.

وانتشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية وفتحت جيوشه الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وامتد الحكم الإسلامي من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي، ومن فرنسا إلى الهند. واستفادت أوروبا كثيراً من اتصالها بأسبانيا المسلمة التي كانت مناراً للعلم والمعرفة لعدد من القرون، وقد كان لهذا الاتصال أثر كبير في النهضة الأوروبية.

لكن نظرة أوروبا إلى المسلمين وإسهامهم في الحضارة الإنسانية لم تكن إيجابية وذلك بسبب الموقف العدائي التقليدي من الإسلام والإحساس المستمر بأنه تحدٍّ خطير ومؤلم، وقد دفع هذا الإحساس علماء وكتاباً غربيين إلى إجراء دراسات حول الإسلام بغية التعرف على السبل الكفيلة باستيعابه والسيطرة عليه، وتطورت هذه الدراسات إلى حركة علميةوسياسية ضخمة هي «الاستشراق».

لم ينطلق الاستشراق من منطلق السعي الموضوعي لفهم الإسلام وحضارته وثقافته، بل

كانت منطلقاته محددة مسبقاً ، وهي في مجملها عقيدة إستعمارية وعنصرية . ويؤكد إدوارد سعيد أن الاستشراق لم يكن أبداً حركة تنشد المعرفة الموضوعية والبريئة عن الإسلام والمسلمين. فقد سعى منذ نهاية القرن الثامن عشر تقريباً إلى وضع الحضارة الإسلامية العربية في قوالب نمطية ثابته يمكن التعامل معها بسهولة، الأمر الذي خدم أهداف «الإمبريالية» الغربية في السيطرة على الشرق. لقد أنتج العلماء والرحالة والكتاب الغربيون سلسلة من الأفكار حول الشرق، تدور في مجملها حول انهماكه في الفسوق وميله إلى الاستبداد وعقليته الشاذه وتخلفه. وقد وظفت هذه الشبكة من الصور النمطية في خدمة مصالح الحكومات الغربية وسياساتها . لم يكن إذاً تعامل الغرب مع الشرق المسلم بناءً على صور صحيحه عنه، بل صور مصطنعة (artificially created)[1] استمرت في التراكم منذ بدايات القرون الوسطى وحتى يومنا هذا. فمازالت وسائل الإعلام الغربية تقدم الإسلام والمسلمين بشكل نمطي يخلو من الحركة والنشاط، وتتجاهل حركة الثقافة وتفاصيل الحياة والمشاعر والعمليات الإنسانية المتشابكة، مكرسة بذلك التقسيم القديم: الشرق المسلم والغرب المسيحي.

يناقش هذا البحث التطور التاريخي لصور الإسلام والمسلمين ، بما في ذلك الصورة المعاصرة في وسائل الاتصال الجماهيري في الغرب، مبتدئاً بمقدمة تعريفية للصورة النمطية.

ماهي الصورة النمطية:

أورد «وولتر ليبمان» مفهوم الصورة النمطية (Stereotype) في كتابه الرأي العام مستعيراً إياه من عالم الطباعة. ويعني الصفيحة التي تستخدم لإنتاج نسخ مطابقة للأصل. وقد استخدم ليبمان هذا المصطلح ليصف ميل الإنسان إلى اختزال المعلومات والمدركات، ووضع الناس والأفكار والأحداث في قوالب عامة مريحة لفهم أسهل[2] .

تمثل الصورة النمطية رأياً مبسطاً أو موقفاً عاطفياً أو حكماً متعجلاً غير مدروس، وتتسم

بالجمود وعدم التغير . وقد حدد «دنيس ديفز» أثر الصور النمطية؛ فذكر أننا عندما نكونها عن شعب معين ، فإن هذا يعني عدم اكتراثنا به، وأنه ليس جديراً منا بالاهتمام الكافي لفهمه وإقامة علاقات معه(٣).

تنشأ بعض الصور النمطية بسبب تشويه الحقائق والتعميم المفرط، وبعضها غير مستند إطلاقاً إلى الواقع، وتمثل وسائل الاتصال الجماهيرية أكبر العوامل المسؤولة عن توليدها وتغذيتها في عالم اليوم.

الإسلام والمسلمون: الصورة الأولى.

كما رفض مشركو العرب الإسلام وكذبوا نبوة محمد ﷺ فقد فعل المسيحيون في البلاد التي فتحها المسلمون الشيء نفسه. وقد ذكر «جيمس وولتز» (Waltes) أن هؤلاء المسيحيين لم يرحبوا بالفاتحين المسلمين واختلفت مواقفهم من الدين الجديد على أربعة أنماط:

بعض المسيحيين، ولاسيما الرهبان، حاولوا تخفيف الصدمة بوضع الفتح الإسلامي في إطار الفكر الكنسي- الإنجيلي، وتفسيره كانتقام إلهي من الخطايا المسيحية. وقد أمل هذا الفريق أن يستعيد المسيحيون الزمام ويشنوا حركة«فتوح» مضادة تحت قيادة دينية أو سياسية. وبعض رجال الدين المسيحيين لما رأوا تسامح المسلمين تجاه أهل الكتاب ، واعتمادهم على الحوار والمناظرة لإقناعهم بالدين الجديد عزموا على الاستفادة من ذلك فألفوا كتباً لمساعدة المحاورين المسيحيين، وإرشادهم إلى الطرح المؤثر لمعتقداتهم والرد على نظرائهم المسلمين. إضافة إلى هذين الموقفين، فقد ظهر موقف اعتبر المسلمين أعداء سياسيين وعسكريين يلزم قتالهم، أو التحالف معهم حسب ما تسمح به الظروف. أما الموقف العام والسائد فقد كان كراهية الفاتحين الجدد والعداوة الدينية لهم وتمني هزيمتهم وطردهم بأسرع وقت ممكن(٤).

وقد تسربت آراء نصارى العرب والبيزنطيين عن الإسلام إلى أوروبا، فأسهمت في تشكيل

الصورة الغـربية عنـه. يقول البرت حـوراني (Hourani): «إن أوروبـا الغـربيـة حين سمعت بالإسـلام لأول مرة وواجهت تحدي القوة الإسلاميـة لم تكن لديها معرفة حقيقيـة بمن ستقاتل، وقد أدى الجهل الممزوج بالخوف إلى ميلاد مجموعـة من الأساطير المضحكة والظالمة، فالمسلمون عباد أوثـان، ومحمد ﷺ سـاحر، بل كاردينـال في كنيسة روما لم تتحقق آمـاله في أن يصبح بـابا، فغضب وفر إلى الجزيرة العربية حيث أنشأ هناك كنيسة خاصة به»[٥].

أما «جيمس وولتز» فقد درس المواقف الغـربية تجاه المسلمين قبل الحروب الصليبية وتوصل إلى أن أبرز تلك المواقف : «الـلامبالاة ، التعايش، العـداء السياسي، العداء العسكـري، العداء الأكاديمي، والعـداء الديني». لقد كـان الجهل وغير المبالاة هما الموقفين السائدين عنـد ظهور الإسـلام (٦٢٢-٧١٠م) ثم تحولا إلى عـداء سيـاسي (٧١٠-١٠٠٠م) فعـداء ديني (١٠٠٠-١٦١٢م)، ثم المواجهة العسكرية. وقد حدث التغيير الرئيس في المواقف الغربية نحو المسلمين حين تولى البابوات الزعامة السيـاسية ودعوا إلى السلم بين الأمم المسيحية المتحاربة، وتـوجيه الطـاقات ضـد المسلمين. عنـدئذ تحول موقف التعـايش بين المسلمين والمسيحيين إلى مواجهة، وترسخت في أذهان الأوروبيين صورة قاتمة وشائنة عن الإسلام والمسلمين[٦].

تطور الصورة: من زمن الحملات الصليبية إلى القرن التاسع عشر

لقد طغت سمات الـريبة والخوف على مواقف أوروبـا في القرون الوسطى تجاه الإسـلام. وقد سمى «سذرن» الفترة من مطلع القرن السابع إلى عام ١١٠٠م «بعصر الجهالة»، فلم يكن هناك بين الكتاب الغربيين من يعرف شيئاً عن الإسـلام على أنه دين «ولا يوجد أى دليل على أن أحداً في أوروبا الشمالية كان قد سمع باسم محمد»[٧].

وشبه «سذرن» هذا النوع من الجهل بـرجل سجين يسمع إشاعات عن الأحداث في الخارج

فيحاول تفسيرها في ضوء قيمه وتصوراته المسبقة. ولما كان الإنجيل هو المصدر الرئيس لأفكار ورؤى الأوروبيين في ذلك الزمان، فقد لجأوا إليه بحثاً عن تفسير للإسلام وأصول العرب الذين حملوه إلى العالم(٨).

واستمرت مشاعر الذعر من الإسلام تخيم على الأوروبيين حتى نهاية الحروب الصليبية. ويقول «سذرن» : إن مسيحية العصر الوسيط اعتبرت الإسلام أكثر «مشكلاتها» إيلاماً، وأوسعها نطاقاً، فعلى المستوى العلمي تطلب وجود اتخاذ سياسة ما تجاهه، والمفاضلة بين خيارات الحرب الصليبية أو اعتناق الإسلام، أو التعايش أو التبادل التجاري. أما على المستوى العقدي، فقد كانت هناك أسئلة ملحة حول رسالته الإنسانية وأثره التاريخي وعلاقته بالمسيحية. ويوضح «سذرن» ذلك بقوله :

«من الناحية العقدية كان هناك ما يتطلب تفسيراً ما لسر وجود الإسلام: ما دوره الإلهي في التاريخ- هل هو أمارة من أمارات الأيام الخيرة للعالم، أم مرحلة من مراحل تطور المسيحية؛ هل هو هرطقة، انشقاق، أم دين جديد؛ أهو من عمل الإنسان أم من عمل الشيطان؟ أهو محاكاة ساخرة وفاحشة للمسيحية، أم نظام فكري يستحق أن يعامل باحترام؟... لقد سبب وجود الإسلام اضطراباً عميقاً للغرب. لقد سبب له اضطراباً دائماً على المستوى العلمي، ليس لأنه يمثل خطراً فحسب، بل لأن هذا الخطر لا يمكن التنبؤ به ولا قياسه، لم يكن لدى الغرب وسيلة لمعرفة مقاصد ودوافع الإسلام، لكن هذا الذي لا يمكن التنبؤ به كان فقط دلالة على الجهل العميق بطبيعة الشيء نفسه» (الإسلام)(٩).

وذهب الصليبيون إلى الشرق لقتال المسلمين، وحل «المشكلة» الإسلامية بالقوة، وأثمرت نجاحاتهم المبكرة -كما يقول «سذرن»- مزيجاً من الزهو والاحتقار. ولم تؤد إلى معرفة أفضل بالإسلام، ويرى «سذرن» أن ذيوع اسم الإسلام واسم نبيه ﷺ في الغرب منذ عام ١١٢٠م

تقريباً لم يكن «معرفة» بالإسلام أو فهماً له ، بل جهلاً آخر قائماً هذه المرة على تصورات خيالية وأساطير شعبية، ولدتها نشوة النصر(١٠).

إلا أنه بدءاً من عام ١١٣٠م أخذ بعض العلماء الغربيين يتعرفون على الإسلام بقدر من الموضوعية، كما بدأوا ينظرون بإعجاب إلى التراث العلمي للمسلمين ويسعون إلى الاستفادة منه. وكان من أوائل هؤلاء الرحالة الإنجليزي «أديلارد أوف باث» (Adelard of Bath) - الذي تجول في بلدان شمال أفريقيا وأسبانيا وسوريا، ودفعه إعجابه باللغة العربية والإنتاج العالمي للمسلمين إلى ترجمة بعض الأعمال العربية إلى اللاتينية، كالمؤلف الكبير في الكيمياء لجابر بن حيان، وجداول الخوارزمي الفلكية. وفي عام ١١٤٥م قام روبرت أوف شيستر (Robert of Chester) بترجمة كتاب الجبر للخوارزمي،(١١) كما أصدر روبرت أوف كيتون (Robert of Ketton) في عام ١١٤٣م أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية على نفقة رئيس رهبان كلوني بطرس المبجل (Piere le Venerable)(١٢) . وأزدهرت حركة الترجمة هذه في أنحاء كثيرة من أوروبا، ويقول محمود حمدي زقزوق: «إن هذه الحركة تشبه الحركة التي قام بها بعض الباحثين المسلمين في عهد المأمون، لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية»(١٣).

لكن هذه الجهود والكتابات التي أبرزت صورة «التفوق العلمي» للمسلمين لم تثمر معرفة صحيحة بالإسلام. يقول: «رودي بارت»: إن شعور رجال اللاهوت في العصر الوسيط بأن الإسلام معاد للنصرانية، ومن ثم فلا يمكن أن يكون ديناً صالحاً؛ شكل حاجزاً أعاق فهم الإسلام وتقويم مصادره الأولى على نحو موضوعي»(١٤).

وفي القرن الثالث عشر تعمق الشعور الغربي بأهمية دراسة الشرق وحضارته وتقاليده، وارتبط ذلك بالدعوة إلى التنصر، وكان لدى دعاة التنصير قناعة تامة بضرورة تعلم لغات

المسلمين خدمة للهدف التنصيري. ويقول زقزوق: «إن هـذه القناعة -التي ترجمت فيما بعد إلى خطة عمل- كانت عـاملاً مهماً فيما يتعلق بتطور الاستشراق»، ويضيف: «لم يكن من السهل في ذلك الزمـان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الديني بصفـة عامة، فالـدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق»[١٥].

وكان روجـر بيكن (Bacon) من أبـرز الذين نـادوا بأهمية تعلم لغـات المسلمين على أنها وسيلـة لتنصيرهم. انتقد بيكن الطمـوحات المسيحيـة للهيمنة على العـالم الإسلامي وقـال إنها أضرت بجهود التنصير، كما انتقد الحروب الصليبية وقال إنها «لم تكن ناجحة، وحتى لو تحقق لها النجـاح فلن يكون لها معنى» إذ لا يمكن احتـلال أرض شـاسعة بـالقوة، كما لا يمكن تفـادي النقمة الشعبية على الغزاة، الأمر الذي سيجعل اعتناق المسيحية أمراً متعذراً [١٦].

وقد شـارك بيكن في رؤيته هذه ريمونـد لول (Lull) الذي كـان مؤمناً أشد الإيمان بـدعوة (الكفار) إلى الدين المسيحي، وضرورة تعلم لغاتهم وعاداتهم لتحقيق ذلك الهدف[١٧].

وقبل وفاة لول بأربع سنوات دخلت أفكاره وأفكار سلفه بيكن حيز التنفيذ، وقرر مجمع فينا الكنسي في عـام ١٣١٢م تدريس اللغـات العـربية واليـونانيـة والعبريـة والسريانيـة في خمس جامعات أوروبية هي جامعات باريس، وأكسفورد، وبـولونيا، وسالامنكا، والمدينة البابوية[١٨]. وقـد مثل هـذا القـرار اعترافـاً رسمياً بفشل الحروب الصليبيـة في تنصير أو إبـادة المسلمين، وتدشين أسلوب مختلف للمواجهة، وهذا ما جعـل كثيراً من البـاحثين يعدون هذا القرار البداية الحقيقة لحركة الاستشراق.

ورغم انتشار الإسلام الواسع في عميق آسيا والهنـد خلال القرن الرابع عشر، ودخول المغول أفـواجـاً في الإسلام، إلا أن ذلك لم يسبب قلقـاً كبيراً لأوروبـا، فمازالت تلك الأحـداث تقع في منطقة نائية جغرافياً. صحيح أن «الغرب لم يعد آمناً، لكن بإمكانه اللامبالاة»[١٩].

في أواخر القرن الـرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر أصبح «الخطر» ماثـلاً للعيان: غزا العثمانيـون شرق أوروبا وصـاروا أسيـاد البلقان بعـد أن تهاوى الصرب أمـام ضرباتهم، فتحـوا القسطنطينيـة في عام ١٤٥٣م ووقفوا على مشـارف البحر الأدرياتيكي، هـددوا أوروبا الغـربية وحـاصروا فيينا عام ١٥٢٩م. وهكذا اقتنع الغـرب -كما يقول سـذرن- «أن عملاً مـا يجب أن يتخذ بشأن الإسلام»(٢٠). لكن مـا كـان بـوسع الغـرب أن يفعل؟

لم تكن هناك استراتيجيـة محددة واضحة تجيب عن هذا السـؤال، فقد دعا مثـلاً جون أوف سيغوفيا (John of Segovia) إلى معـالجة الإسلام من خـلال «مؤتمر» يتخـذ التشكيك في صحة القرآن والزعم بتناقضه وصـولاً إلى حمل المسلمين على اعتناق المسيحية، وأكد أنه حتى لو استمر هذا المؤتمر عشرات السنين، فسيكون أقل كلفة وتدميراً من الحروب. أما جان جرمان فقد دعا إلى إحياء الروح الصليبية واعتماد خيار القوة للتعامل مع الإسلام(٢١).

لكن أيـاً من هـذين الرأيين لم يكتب لـه النجـاح. واستمر الـزحف الإسـلامي على الحدود الشرقية حتى أواسط القرن السادس عشر عندما سقطت المجر في يد العثمانيين في عام ١٥٤١م

وعندمـا ظهر مـذهب التجارة في أوروبا ، وخفت حـدة الخوف من «التهديـد» الإسلامي، شعرت أوروبـا بضرورة تعديل طبيعـة المواجهة مع الشرق المسلم لخدمة تـوجهاتها الاقتصـادية والسياسية، وظهرت دراسات عن الإسلام أكثر موضوعية من ذي قبل، كما بدأ الرحالة الغربيون يفدون إلى المشرق تجسيداً لمرحلة جديدة من العلاقة بين أوروبا والإسلام(٢٢).

ولأن هؤلاء الرحـالة كانوا يحملون تصورات مسبقـة عن الإسلام والمسلمين، فهم لم يبينوا في كتـاباتهم حقيقـة المناطق التي زاروهـا، بل حقيقـة ميولهم وأوضـاعهم، وكذلك العلماء الـذين تخصصوا في دراسة الإسلام والعربية في الجامعات الأوروبية، فرغم اعتراف عدد منهم بالإسهام الكبير للمسلمين في الحضارة والمعرفة إلا أن انتماءهم المسيحي ظل يلّون مواقفهم تجاه الإسلام.

وهكذا فإن الغرب -كما قال إدوارد سعيد- أراد توثيق الشرق، فانتهى إلى توثيق نفسه(٢٣).

من هؤلاء العلماء الذين درسوا العربية وليام بدويل (Bedwell)(١٥٦١-١٦٣٢م). معجباً باللغة العربية ومثمناً لدورها كاللغة «الوحيدة للدين، واللغة الرئيسة للدبلوماسية والأعمال» في مناطق واسعة من العالم. لكن ارتباط بدويل بالتبشير قاده إلى التحيز ضد الإسلام واتهام النبيﷺ بأنه «الدجال الشهير ومضلل العرب ... وواضع القرآن»(٢٤).

أما وليام لثغو (W. Lithgow) فهو سائح إنجليزي زار المشرق في أوائل القرن السابع عشر، وألف كتاباً بعنوان «الارتحال»، تضمن إشارات عديدة «لوحشية» العرب و«همجيتهم» و«تعطشهم للدماء». قال لثغو: إن كل واحد من هؤلاء العرب «المتوحشين يتعامل مع الآخرين بقسوة وأسلوب غير متحضر كأنما يعيشون في برية مملوءة بالحيوانات المتوحشة ويقتاتون على النهب والسلب، وليس لديهم أي حس للإنسانية». وأكد لثغو أنه لا يثق في الترك أو البربر أو العرب فكلهم «كفار» و«أعداء حقيقيون للمسيح»(٢٥).

يقول سري ناصر: إن كتب الرحالة الإنجليز في أوائل القرن السادس عشر كانت تركز على تصوير العرب على أنهم شريرون مجرمون. وفي القرن السابع عشر أضيفت صورة أخرى تتعلق بالقرصنة والرق. وكان الرجل الذي أدى دوراً كبيراً في تدعيم هذه الصورة هو جوزيف بتز (Pitts) الذي ألف كتاب الرواية الأمينة لدين وسلوك المحمديين وزعم فيه أن قراصنة جزائريين أسروه في عام ١٦٧٨ وعمره خمسة عشر عاماً، وأن هؤلاء «المحمديين» يمارسون اللصوصية والتسول والشذوذ الجنسي(٢٦).

وبشكل عام فإن تصوير التجار والرحال الإنجليز للمسلمين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كان سلبياً: عرب الصحراء «متوحشون» و«متعطشون للدماء» وأهل الشام أو الساراسين (Saracens) أعداء أشداء للمسيح، والبربر متاجرون بالأرقاء المسيحيين ومصر

بلد الغموض والسرية، والقاهرة مدينة المساجد وتجارة الرقيق والمتسولين والبغايا و«عدد لا يحصى من الكفار » و«فلسطين، الأرض المقدسة، يسيطر عليها الكفار» والجزائر وتونس وليبيا بلاد القرصنة والرق والجزائر «شؤم على المسيحيين، ومجزرة للجنس البشري»(٢٧).

وقد شهد القرن الثامن عشر تحولاً في التصوير الإنجليزي للشرق، حيث لم يعد التركيز قاصراً على المسائل الدينية، بل تعداه إلى دراسة التاريخ والأدب والحضارة واللغة. وكان سلمون أوكلي (Ockly) أحد الإنجليز المستعربين الذين حاولوا تقديم صورة جديدة ومختلفة عن العرب من خلال دراسة تاريخهم وحضارتهم. في كتابه تاريخ العرب (١٧٠٨م) الذي يقع في ثلاثة أجزاء امتدح أوكلي العرب والمسلمين لشغفهم بالعمل وحكمتهم وبعد نظرهم، مما سبب نوعاً من الصدمة المؤلمة لقرائه الأوروبيين. بيد أنه في الوقت نفسه شجبهم لأنه كما قال «سبباً في انهيار الكنيسة الشرقية». وهاجم الإسلام كغيره من المستشرقين فوصفه بأنه «المعتقد الخرافي الجديد»(٢٨) و«هرطقة شنيعة»(٢٩).

أما وليم إيتون (Eton) فقد كان أحد مستشرقي القرن الثامن عشر الذين جسدوا أثر الاستشراق على أنه رافد من روافد الاستعمار. في كتابه عرض للإمبراطورية التركية هاجم الترك بشدة لأنهم «محمديون» مصابون «بغرور العظمة» وشديدو الاستبداد «بسبب الأوامر المتعجرفة والبربرية» لدينهم(٣٠) . وصوّر العرب تصويراً أفضل نسبياً فوصفهم بالمعرفة والأدب. وقد بدا هذا التصوير المختلف للشعبين متسقاً مع الطموحات البريطانية في تعميق الفجوة بين الترك والعرب بغية تفكيك الدولة العثمانية. ومما يدعم هذا الاعتقاد الدور السياسي الذي قام به إيتون حيث كتب إلى لندن طالباً إرسال وكيل رسمي لخطب ود العرب الذين كما يقول «لا يعترفون بسيادة السلطان»(٣١).

وبالإضافة إلى كتابات المستشرقين، فقد شهد القرن الثامن عشر ترجمة نشر قصص (ألف

ليلة وليلة)، وهي الصورة التي رسمت صورة حالمة و«رومانسية» وغريبة عن الشرق، وقد أدى تململ الأوروبيين من نزعة العقلانية التي سادت في ذلك العصر ورغبتهم في الترويح عن النفس إلى الإقبال على هذه القصص، التي تدعم صوراً قديمة وترسم صوراً جديدة عن الشرق، كما يشير إلى ذلك محسن علي بقوله :

«لقد أخذ القارىء العادي قصص ألف ليلة وليلة بكل تفاصيلها الواقعية والغريبة وأساليبها العاطفية، على أنها حقيقة، حيث توافقت مع انطباعاته حول الشرق الساحر المترف وسلاطينه المستبدين الداعرين(٣٢)».

لقد رسمت (الف ليلة وليلة) صورة خيالية عن الشرق كالثراء الضخم والانغماس في الملذات والبحث عن الجنس والقسوة واضطهاد (الحريم) ... إلخ، وشارك كتاب أوروبيين كالفرنسي انطوان غالان (Galland) وشاردان (Chardin) في تكريس هذه الصور عبر رواياتهم وقصصهم(٣٣).

وختاماً ينبغي التنبيه إلى أنه وإن طرأ بعض التحسن على تصوير العرب في القرن الثامن عشر فإن الهجوم على الإسلام ظل مستمراً، كما ازداد تدعيم القوالب النمطية عن الشرق من خلال القصص والروايات التي حظيت بإقبال كبير. وشهد هذا القرن أيضاً بداية الاستشراق السياسي، أي قيام المستشرق بتقديم المعلومات والنصائح لحكومته خدمة لأهدافها ومصالحها السياسية في الشرق، وهو ما سماه سعيد الاستشراق الظاهر (Manifest) حيث يعمل المستشرق «وكيلاً خاصاً» لحكومة غربية عند محاولتها انتهاج سياسة ما حيال المشرق»(٣٤).

الصورة في القرن التاسع عشر

قبيل بداية القرن التاسع عشر ترسخت لدى العلماء الغربيين القناعة بأن الشرق «فاقد للحيوية والروح بشكل أساسي» وأنه يحتاج إلى الغرب ليبعث فيه الحياة. ويرى سعيد أن هذه النظرة تتفق تماماً مع أهداف وسياسات المستعمر في تلك الفترة، وأن بريطانيا وفرنسا بالذات توصلتا إلى أن الشرق المتدهور والفارغ من الثقافة أصبح بحاجة ماسة إلى إمداده بالحضارة والمفهومات الغربية[٣٥].

كان الإنجليزي إدوارد (Lane) (١٨٠١-١٨٧٦) أحد المستشرقين البارزين الذين حملوا هذه النظرة خلال القرن التاسع عشر[٣٦].

ذهب لين إلى مصر في عام ١٨٢٥م ومكث فيها خمس سنوات، وفي عام ١٨٣٦م رصد تجربته مع المصريين في كتاب من جزئين بعنوان «سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم» ، وصفه جون هولنباخ بأنه مستمد من نظام قيمي مسيحي وإنجليزي بلا جدال[٣٧].

أسهب لين في وصف جهل المصريين وزعم أنهم مثقلون بالأخطاء، وليس لهم سوى أمل واحد: أن يستنيروا عن طريق الاحتكاك بالغرب، قال: «إننا نأمل ونتوقع تحسناً كبيراً في الحالة الفكرية والأخلاقية لهذا الشعب بعد أن جلب له محمد علي العلوم الأوروبية ليعدل من كفة سلطته القمعية عليه»[٣٨]. وهاجم لين الإسلام وقال: إن طاقة المصريين العقلية منخفضة بسببه[٣٩] . ووصف العرب عموماً والمصريين خصوصاً بأنهم «مؤمنون جداً بالخرافات» التي تمثل جزءاً من دينهم -كما زعم- وأشهرها إيمانهم بالجن، كما وصف العرب بأنهم كسالى، مفرطون في الملذات، وخضوعون بطبعهم للسلطة[٤٠] . واتهم علماء الدين في مصر بالجنون أو الدجل[٤١].

وقد وقع لين في شرك الانتقائية وهو يسرد ملاحظاته عن المصريين، فكتب الكثير عن السحر والتنجيم والحشيش والأفيون والرقص، وعدد الخرافات وكرر سرد الحوادث المثيرة الشاذة، واتهم المصريين بأنهم «عنيدون وجشعون ولا يعرفون الصدق لأن قول الحقيقة فضيلة نادرة جداً في مصر الحديثة»(٤٢).

وفي عام ١٨٤٤م أصدر رحالة إنجليزي آخر هو الكسندر كنغليك (Kinglake) كتابا بعنوان Eothen وُصف بأنه أكثر كتب الرحلات إلى المشرق شعبية في القرن التاسع عشر. احتوى الكتاب الصور النمطية المعتادة عن المسلمين «كالخداع وعدم الجدارة بالثقة، والإيمان غير المفهوم بالقدر»، وأوحى ضمناً أن السبب الرئيس لهذا السلوك هو الإسلام(٤٣).

وقد نقل هذه الصورة ودعمها رحالة آخر من اصدقاء كنغليك هو إليوت واربرتن (Warburton) في كتابه الهلال والصليب، الذي حظي بشعبية كبيرة وطبع ١٨ مرة، كان آخره في عام ١٨٨٨. وصف واربرتن الرجل المصري بأنه «منغمس في الشهوات ومستعبد» وقال : إن «المسلم يشتري زوجته كما يشتري فرسه، ويهزأ من فكر الشرف والحب»(٤٤)، وقال إن موقف المصري من نسائه قاسٍ وبهيمي، «ولهذا فالمرأة تعيش وتموت، وهي في الحقيقة ليست أكثر من حيوان عنده، أي كما شاءت عقيدته البائسة!»(٤٥).

ووصف واربرتن المصريات بأنهن «يملكن كل حماقة الأطفال ولا يملكن براءتهم وعذوبتهم الرائعة، جمالهن شهواني باهت يدغدغ المشاعر فقط». أما الفلاح المصري فيقول عنه أن «ولاءه عبودية، وشجاعته ضراوة، ودينه خرافة، وحبه شهواني، وزهده رياء، وتكيفه مع الظروف إيمان جبان بالقضاء والقدر»(٤٦).

كان واربرتن متأثراً في مواقفه هذه بالصورة النمطية عند العرب التي كان يحملها المجتمع الإنجليزي في القرن التاسع عشر، كما كان يصدر عن «عبء الرجل الأبيض» (The White Man Burden) ونظرته الفوقية الاستعلائية. هذا العبء يصبح الاضطلاع

بـه ضروريـاً في أي وقت يـرد فيـه ذكـر الشرق المسلم «المتخلف» و«الميت»، وهـو مـا عبر عنـه واربـرتن حينها دعا الحكـومـة البريطانيـة إلى الدخـول في هـذا الجزء من العالم «لتثبيت وحمايـة الصليب»، أي نقل مشعل الأخـلاق والحضارة إلى الشرق المسلم «المنحـرف»، مما يظهـر بجلاء صلة الاستشراق بأهداف المستعمر ومطامعه ونواياه(٤٧).

ويضيف رحالة فيكتـوري من رحالة القرن التـاسع عشر وهو ريتشرد بيرتن (Burton) - أدلة أخرى إلى دور الاستشراق السيـاسي بصفته رافد من روافد السيـاسة الاستعمارية، فيشير إلى أن العرب ساذجون ويمكن التلاعب بهم بسهولة: «ليس شيء أسهل من الإنسان الذي يعرفهم جيداً من التأثير في مشاعرهم الطيبة»(٤٨).

ويدعو الحكومة البريطانية إلى احتلال الشرق: قائلاً «إننا لا نحتاج بصيرة نبي للتنبؤ باليوم الذي تلزمنا فيه الضرورة السيـاسية باحتلال منبع الإسلام»(٤٩). ويتحدث في كتـابه الحج عن مصر فيقول : «إنها كنز يجب الظفر به... إنها أكثر الغنـائم إغراء، ويقف بها الشرق صامداً أمام طموح أوروبا»(٥٠).

ولا تختلف آراء بيرتن هـذه عن آراء رحالة أمـريكي شهير هو بـايرد تـايلور (Tylor) فيما يتعلق بالموقف السلبـي تجاه الإسلام، والإيمان بعبء الرجل الأبيض. فقـد ألف تايلـور كتاب أراضي العرب الذي كـان من أكثر كتب الاستشراق الأمريكية رواجـاً في منتصف القرن التاسع عشر، وفيه قـدم تايلـور العرب على أنهم شبقون داعـرون وغامضـون غريبـو الأطوار، كما وصف الحكـومة التركيـة بأنها «نظام مفـرط في البشاعـة، قـائم على الخداع والفساد» وطـافح بالبـلادة والإيمان الأعمى بالقدر بشكل مرعب(٥١).

وتظهر صليبية تايلور وشعوره بالتفوق العنصري عندما يتحدث عن الشام التي كانت تضم فلسطين فيقـول: «ياهذه البـلاد، كم ستكـون جنة لـو استلمتهـا أيـدٍ أفضل!». ويوضح أكثـر

فيقول: «سلمّوا فلسطين لأيدٍ مسيحية وسوف تفيض مرة أخرى باللبن والعسل»[٥٢]. ولا ريب أن هذه العبارات الصادرة عن «الرجل الأبيض» المسيحي رسول الحضارة إلى الشرق الراكد المترهل، قد أسهمت كثيراً في دعم توجهات «الإمبريالية» وسيطرتها على الشرق.

بيد أن هذه الأفكار المشحونة لم يحملها كل المستشرقين، فقد تميز الرحالة الفكتوري ولفريد بلنت (Blunt) بإعجابه بالعرب كجنس نبيل ذي ثقافة متفوقه لم «تتلوث» بالحضارة الغربية، وكان ينظر إليهم على أنهم أمة مضطهدة تحتاج إلى المساعدة في كفاحها ضد الهيمنة الأجنبية، خاصة ضد الإستعمار البريطاني[٥٣].

وقد عبر بلنت عن هذه النظرة في كتابه «التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر» حيث أبدى تعاطفاً مع المصريين، ووصفهم بالطيبة والنزاهة والاعتدال. أما في كتابه «مستقبل الإسلام» فقد ناشد الغربيين والإنجليز بصفة خاصة أن ينظروا إلى الإسلام كقوة إيجابية شاركت في إثراء المعرفة الإنسانية، ودعاهم إلى عدم الخوف من الإسلام[٥٤]. على أن هذا الموقف الإيجابي يعد نادراً في خضم التحامل الموروث على الإسلام والتصوير السلبي التقليدي للعرب والمسلمين.

ولعل أبرز المستشرقين الذين أسهموا في تدعيم الصورة النمطية المعتادة عن الإسلام والعرب خلال القرن التاسع عشر هو الرحالة الفيكتوري تشارلز داوتي (Doughty) ففي كتابه رحلات في الصحراء العربية زعم أن هناك ثلاثةأخطار رئيسة في صحراء العرب: السلب والمجاعة و«ديانتهم الخرافية ذات الوجه المروع»[٥٥]. وقد وصف دواتي هذه الديانة أيضاً بأنها «ديانة السيف العربية ويجب أن تعالج بالسيف»[٥٦]، ويصور داوتي العرب تصويراً شائناً فيقول: «مثل الساميين كمثل رجل غاطس حتى عينيه في المرحاض بينما حاجباه يلمسان السماء»[٥٧]. ويتحدث عن المرأة العربية فيقول إنها ليست أكثر من «محظية» عند زوجها المستبد

الذي يسومها «العبودية الشاقة» ويستخدمها فقط «كهدف جنسي»، ثم ينبذها «إذا اعتراها الذبول»[٥٨].

إن كتابات داوتي لم تخرج عن التيار الاستشراقي السائد والذي وضع الشرق في قوالب جاهزة، ونظر إلى معتقداته وتقاليده من منطلقات دينية وعرقية.

الصورة في القرن العشرين

في القرن العشرين ازداد النفوذ الغربي في العالم الإسلامي، وتزعمت بريطانيا تحديداً أدواراً مهمة وحساسة في مصير هذا العالم وأوضاعه السياسية والاقتصادية والجغرافية.

استمر الرحالة والكتاب والعلماء في تدعيم عدد من الصور النمطية المتوارثة، وأسهمت أنشطة الحركة الصهيونية الدعائية ومطالبتها بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين - في تشويه صورة العرب وتعميق الكراهية لهم.

ولا ريب أن الصورة العربية المعاصرة تأثرت كثيراً بأنشطة الرحالة والمغامر البريطاني الشهير ت. اي. لورنس (Lawrance) - أو لورنس العرب الذي ولد في شمال ويلز سنة ١٨٨٨م، وكانت مهامه التي قام بها مثاراً للجدل، وحياته كلها مرتعاً خصباً للخيال والغموض. مكث لورانس سنوات عديدة في المنطقة العربية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى محاولاً التعرف على عادات العرب ولغتهم وثقافتهم. وفي عام ١٩١٤م بدأت أعمال البعثات الأثرية الإنجليزية ذات الصبغة التجسسية، وقام لورانس برفقة عالم الآثار البريطاني ليونارد وولي بمسح شامل لسيناء، كما انضم إلى المكتب العربي بالقاهرة الذي كان يضم أكفأ الضباط الإنجليز في مجال الاستخبارات والمساحة العسكرية[٦٨].

ونشبت الحرب العالمية الأولى التي تنادت فيها الدول الغربية للقضاء على ما تبقى من الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا، وقام لورنس بدور رئيس في خداع العرب بالاستقلال والحرية بعد القضاء على الحكم العثماني، وعندما اندلعت الثورة العربية كان لورنس دائم الاتصال بالجنرال أدمون اللنبي رئيس أركان القوات البريطانية في مصر يزوده بالمعلومات ويطلعه على تطورات المعارك. وشارك لورنس في تدمير سكة حديد الحجاز وسكة حديد بغداد - برلين. ولما هزمت الدولة العثمانية تقاسمت بريطانيا وفرنسا المنطقة العربية في اتفاقية سايكس - بيكو، وتبخرت أحلام زعماء العرب في الاستقلال، وتهيأت الأجواء لصدور وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو المشروع الذي كان يصطدم دائماً برفض العثمانيين (٦٩).

لقد أدى لورنس دوراً مهماً في خدمة سياسة حكومته الاستعمارية، وكان يرى أن العرب ساذجون ويسهل تضليلهم بالوعود الكاذبة. وقد أشار إلى ذلك في كتابه أعمدة الحكمة السبعة حيث قال إن «العرب يؤمنون بالأشخاص لا بالمؤسسات، وقد نظروا إليّ كوكيل حر للحكومة البريطانية وطلبوا مني تأييداً لوعودها المكتوبة لذا كان عليّ أن أشترك في المؤتمرات ... وطمأنت الرجال على مكافأتهم. وخلال سنوات اشتراكنا تحت لهيب النار ازداد إيمانهم بي واعتقادهم أن حكومتي مخلصة مثلي»(٧٠). وصف لورنس العرب بأنهم سطحيون وفرديون وخنوعون وغير متوازنين، وحظيت هذه الصورة بقبول الرأي العام البريطاني وإعجاب الساسة البريطانيين(٧١).

الاستشراق الجديد: القوالب النمطية المعاصرة

شهدت صورة الإسلام والمسلمين تطورات جديدة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة للتغيرات السياسية أو الاقتصادية الضخمة في الشرق والتي أبرزها: إسرائيل، والمقاومة

الفلسطينية، والنفط، وراجت في الثقافة الشعبية الأمـريكية صورة العربي والمسلم، وظهر اهتمام الأوساط السياسيـة والتجارية الأمريكية بـالعرب. ولما كانت الولايات المتحـدة قد خرجت من الحرب قويـة، فقد سعت لتهيئة نفسها لملء الفـراغ الذي خلفته بريطـانيا وفرنسا والقيـام بدور إمبراطـوري في الشرق، لكن هـذا السعي اصطـدم بخبرتها المحدودة بـا لمنطقـة، التي لا تقـارن بـالتقليـد الاستشراقي العـريق في كل من بـريطـانيا وفـرنسـا، ومن هنـا فقـد شجعت الاهتمام بالدراسات الشرقية، وأنشأت معاهد ومـراكز أبحاث تعنى بشؤون الشرق، كما أيدت بروز عدد من المستشرقين، واستقطبت مستشرقين أوروبيين أو «خبراء» كما يسمــون: يضعــون خبرتهم في خدمة الحكـومة وقطاع الأعمال. وبشكل عام فقد ورث الاستشراق الأمـريكي القوالب النمطية الأوروبية، وسعى إلى تحقيق الأهداف نفسها: السيطرة على الشرق، ووضع «خطر» الإسلام تحت التحكم الغـربي . من أبـرز المستشرقين الـذين أثـروا في تكوين الصـورة المعـاصرة عن الإسـلام والمسلمين غوستاف فون غرونبام (Grumnebaum) وهاملتون جب (Gibb) وبرنارد لويس (Lewis) ودبليو. سي. سميث (Smith) وكنيث كراغ (Cragg) ومونتغمري وات (Watt)

نظر هؤلاء عمومـاً إلى الإسلام على أنه «خنوع» و «سلبي» و «مغلق» ولا يستجيب إلا لمنطق القوة والعنف. وسنكتفي هنـا بواحـد من هؤلاء وهو بـرنارد لـويس، الذي يتمتع بتأثير كبير في الدراسات الأنجلو – أمريكية عن الشرق، ويعتبر مرجعاً غربياً عن الإسلام والعرب.

يصور لويس الإسلام على أنه دين استبدادي، مضاد بطبيعته للحرية والديمقراطية، مثله في ذلك مثل النظـام الشيوعي. يقـول في مقـالته الشهيرة «الشيـوعيـة والإسلام» إن الـديمقراطيـة البرلمانيـة كما تمارس في الغرب هي أصعب أشكـال الحكم و«تتطلب صفـات معينة في المقـدرة العقليـة والسلوك، في المؤسسـة الاجتماعية والتقليـد، بل ربما حتى في المنـاخ لكي تعمل بشكل فاعل» ويزعم لويس أنه بسبب هذه الصفات، فإن الديمقراطية تجذرت فقط في أوساط شعوب أوروبا الشمالية والشمالية الغربيـة وفي الأراضي التي استعمرتها سلالات هذه الشعوب(٧٢)، ولا

تختلف هذه العبارات في جوهرها عن لغة الاستشراق القديمة: تفوق الرجل الغربي وتسويغ استعماره للشعوب الأخرى بنقل مفهومات الحرية والديمقراطية إلى هذه الشعوب.

ويؤكد لويس أن قابلية المجتمع الإسلامي للشيوعية هي أكبر من قابليته للخيار الديمقراطي بسبب انتماء هذا المجتمع للإسلام، الذي يحوي -على حد زعمه- كثيراً من التعاليم الاستبدادية. ويرى لويس أن الرجل الغربي يتميز بصفاته خاصة كفهم وممارسة الديمقراطية، ويعزو هذه الصفات إلى الميراث «اليهودي - المسيحي»، الذي يؤكد على التطور والنقد الذاتي، أما الإسلام فيزعم لويس أنه عقيدة جامدة لا تحبذ التغيير ولا تشجع النقد والتطور. إن الطبيعة الاستبدادية للإسلام -كما يزعم لويس- نخرت كل مجالات الحياة في المجتمع الإسلامي؛ السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ولذا فلا توجد فرصة حقيقية لتطور المجتمع وهياكله السياسية والاقتصادية، وبالتالي فإن المجتمع يصاب بالشلل والركود(٧٣).

الصورة في وسائل الاتصال الجماهيرية

من المؤكد أن وسائل الاتصال الجماهيرية في أوروبا وأمريكا قد ورثت الصور النمطية الاستشراقية عن الإسلام، وأن كتابات المستشرقين وآراءهم و «الخبراء» المعاصرين أمثال برنارد لويس وإلي خضوري، وبي. جي. فاتيكيوتس، تعد إطاراً لتفسير وفهم الأحداث الجارية في العالم الإسلامي كالحركات السياسية والاجتماعية والانقلابات والثورات ومقاومة الاحتلال و«الإرهاب». يصف سعيد هؤلاء المستشرقين بأنهم ليسوا أكثر من «بنادق مستأجرة» يدرسون العالم الإسلامي لا ليفهموه ويتضامنوا مع شعوبه كما يفعل خبراء أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، الذين يقودهم اطلاعهم على أوضاع تلك المناطق إلى التعاطف مع شعوبها. إنهم على

العكس يعوقون سبل الفهم والتعايش، فهم بذلك يتناسون أمانة التخصص الذي يعيشون عليه ومنه يقتاتون. ويضرب سعيد مثلاً لذلك بموقف هؤلاء من «الإرهاب» وتأكيدهم أن «الإسلام دين إرهابي حقاً» ويستشهد بعبارة لبرنادر لويس يقول فيها: «إن من المناسب أن نستخدم الإسلام كمصطلح للتعريف والتصنيف في النقاش حول الإرهاب المعاصر»(٧٤).

لقد أسهمت آراء وتحليلات هذه الطائفة من «الخبراء» علاوة على «الكليشيهات» الاستشراقية القديمة في تشكيل صورة المسلم والإسلام في وسائل الاتصال الجماهيرية الغربية، فصارت هذه الوسائل تقدم الإسلام على أنه «نهاية الحضارة» كما يعرفها الغرب، ونقيض الديمقراطية والإنسانية، وتقدم المسلمين والعرب بالذات على أنهم غير عقلانيين ومتوحشون وفوضويون.

ويقول جاك شاهين – وهو من أبرز الذين درسوا صورة العربي في التلفزيون الأمريكي – إن صورة العربي في ذلك التلفزيون هي صورة الوغد «Villain» فهو المحتال، وطاعن الظهر، سواء كان مندساً في أسواق القاهرة، أو جاثماً في خيمة في وسط الصحراء، محاطاً بآبار النفط. كل الصور الممكنة بالغة السوء تقدم من البدوي المتعطش للثأر إلى الذي يبتز بالنفط. وبذلك يسهم التلفزيون تخليد أسطورة أنه لا يوجد عرب نبلاء»(٧٥).

ويعدد شاهين بعض المسلسلات التي قدم فيها العربي عبر شاشة التلفزيون في صورة حيوانية أو مجردة من الصفات الإنسانية (Dehumanized) مثل فيغاس (Vigas) وهودنيت(Whodunnit) وذا أمريكان غيرلز (The American Girls) وسويب ستيكس (Sweepstakes)(٧٦).

في مسلسل «فيغاس» مثلاً يهدد أحد الجنود النظاميين واسمه توني كرتس العربي «الشيخ» ويقول لصديقه : «الحرب الأخيرة استغرقت سبعة أيام، وهذه لن تدوم أكثر من ساعات قليلة»

وفي مشهد من مشاهد «هودنيت» كان البطل رجل شرطة يسوقه حظه العاثر إلى لقاء «الشيخ»، وفي لحظة من اللحظات يمتشق هذا الشيخ سيفه فيقول للشرطي: «أخبروا فاستو أن يضع عود أسنانه (ToothPick) جانباً. هذه بيفرلي هيلز، وليست الصحراء» . وهنا تتجلى الحماقة والتخلف وعدم استيعاب العصر.

ويكثر تقديم العرب في المسلسلات والأفلام على أنهم يعشقون الشقراوات الأمريكيات، وأنهم غير مقتنعين أو مكتفين بزوجاتهم أو «حريمهم». وقد وردت هذه الصورة كثيراً في فيلم «الشيخ» الذي حقق شهرة كبيرة في أمريكا وبريطانيا.

أما برنامج ستون دقيقة (60 Minutes) الذي تبثه شبكة سي. بي. إس (CBS) فقد عرض في إحدى حلقاته مشهداً «لشيخ» راكب في المرتبة الثانية لسيارة رولز رويس، وعندما أوقف السائق السيارة أمام فندق فخم وترجل «الشيخ» سأله السائق: «ماذا أصنع بالسيارة يا سيدي» فأجاب الشيخ: «احتفظ بها!».

وفي «سويب ستيكس» يتساءل بطل المسلسل ويجيب عن هوية الشخص المستعد لدفع نصف مليون دولار لشراء بيت في الولايات المتحدة ... يقول: «من، عربي؟!)

وإضافة إلى صور الهيام بالجنس، والثراء الفاحش، وضعف المهارات القتالية، والبلادة، فقد أبرز التلفزيون صور الوحشية والإرهاب وعدم العقلانية والفوضى. ففي برنامج شبكة سي. بي. إس (CBS) الكوميدي «ون داي أت أ تايم» (On Day at a Time) يظهر بعض الشباب الأمريكيين في مظاهرة احتجاج على وصول عربي إلى المطار، وتبدو الممثلة التي قادت الاحتجاج مقتنعة أن العرب لا يحاولون شراء أمريكا فحسب، بل بحكم امتلاكهم للنفط المسؤولون الوحيدون عن التضخم والفوضى العالمية.

وفي مسلسل روك فورد فايلز (Rockford Files) يهم شرطي بقتل طالب عربي، فيتوسل إليه الطالب قائلاً: «لا تدعهم يأخذوني هناك، إنهم سيقطعون رأسي ويضعونه فوق سارية».

وفي إحدى مباريات المصارعة يقوم المعلق بوصف المصارع «أكبر» قائلاً: «أكبر يحب أن يسمع طقطقة العظام، وعندما يكشر، يبدو قبيحاً، قبيحاً. أكبر من العربية السعودية وشديد الثراء إلى درجة أنه يصارع ليس من أجل المال، ولكن للمتعه التي يكتسبها من إيقاع الألم للآخرين».

وقد أكد شاهين في كتابه عرب التلفزيون أن مسلسلات التسلية وأفلامها تصور العرب تصويراً نمطياً يتخذ صفة الديمومة والتخليد، وأن هذا التصوير «لا يوفر معلومات فحسب، بل «صوراً في أذهاننا» كما قال ولتر ليمبان. صور العرب هذه تعزز وتشحذ التحيز لدى المشاهد. برامج التلفزيون ليست تسلية فقط، إنها أيضاً رموز»[٧٧].

وحذر شاهين من أن صنع وتخليد الصور القبيحة للعربي ربما استخدم على أنه مبرر لتحقيق مكاسب سياسية واستراتيجية كاستغلال منابع النفط[٧٨]. واستشهد بتقرير عن العلاقة السعودية الأمريكية لغارك أتلي مذيع شبكة إن بي سي (NBC) قدمه في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ وقال فيه :

لقد أُرغمت الولايات المتحدة على علاقة جديدة... ببلد ومنطقة ليس لها روابط ثقافية بها ولا مشاركة سياسية طويلة الأمد؛ علاقة ذات قاسم مشترك واحد؛ النفط. هم يملكونه، ونحن نحتاجه، ربما لا يعجبنا هذا، إننا نحتاج نفطهم. ببساطة لماذا لا تساعد الولايات المتحدة نفسها بنفط أكثر؟ أو بعبارة فظة: لماذا لا نأخذه؟ [٧٩].

وهكذا تبدو الصورة واضحة: تهميش العالم الإسلامي على أنه عالم آخر معادٍ صاحب ثقافة مرفوضة، مما يولد الشعور بوجوب الهيمنة على هذا العالم، أو العدوان الصريح عليه. وقد أشار سعيد في كتابه تصوير الإسلام إلى هذه النقطة قائلاً:

«لعل من المبالغة الطفيفة القول أن المسلمين والعرب يصرون أساساً ويناقشون ويفهمون إما كمزودين بالنفط أو كإرهابيين محتملين.. شيء يسير من التفصيل والعمق الإنساني والتفاعل

العاطفي مع الحياة الإسلامية العربيـة قد خالط إدراك حتى أولئك الذين بحكم عملهم ينقلون أخبار العالم الإسلامي. الذي لدينا بدلاً من ذلك هو سلسلة محدودة من الكاريكاتورات الفجة المؤسسة للعام الإسلامي تعرض بطريقة .. تظهر هذا العالم قابلاً للعدوان العسكري»[٨٠].

ونشر شاهين في جـريدة الحياة مقالاً بعنـوان «المصلحة من تشويه صـورة العربي والمسلم في إعلامهم» أكد فيه أن وسـائل الإعلام الأمريكية مازالت تقدم صـورة «المسلم القبيح» خصوصاً الأمريكيين والإسرائيليين[٨١]. ففي الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤م عرض برنامج آي أون أمريكا (Eye On America) الذي تقـدمه شبكـة سي بي إس (CBS) حلقة قدمها الصحافي ستيفن أمرسن عن الإسلام، وادعى فيها أن الأمـوال التي يجمعها المسلمون في أمريكا هي من أجل شن «حـرب مقدسـة» في أمريكـا والشرق الأوسط. وفي ٢١ من نفس الشهر قـدم أمرسـن في شبكة بي بي إس (PBS) برنامجاً بـاسم «الجهاد في أمريكا» أصل فيـه صورة المسلم «القبيح» و«الآخر المعـادي» الشغوف بسفك الدماء والـراغب في مهاجمة غير المسلمين. ويعتبر البرنامج جزءاً من حملة تشهير يتعرض لها المسلمون والعـرب في أمريكا منذ نسف مركز التجارة الدولي في نيـويورك في ٢٣ تشرين الثـاني وفي عام ١٩٩٣ م[٨٢] عرض فيلم «أكـاذيب حقيقية» الذي كلف إنتاجه أكثر من ١٠٠ مليون دولار، وفيه يظهر الممثل أرنولد شوارتز ينغز وهو يردي بالرصـاص عشرات «الإرهابيين» من المسلمين العرب، الذين يخططون لتفجير قنبلـة نووية على سواحل فلوريدا[٨٣].

ولا تختلف صورة المسلم والعربي في الصحافة عنهـا في التلفزيون والسينما. وقد أسهم وجود إسرائيل في المنطقة العربيـة، واشتعال المقاومة الفلسطينية ضدهـا، وحظر النفط عام ١٩٧٣م- في تشكيل صورة قاتمة عن العـرب، فهم إما «إرهابيون» و«متطرفـون» أو «مبتزون بالنفط» و«غير عقلانيين».

أمـا إسرائيل فهي ديمقراطيـة ومتحضرة تحيط بها بلـدان معاديـة متخلفة. نشرت صحيفـة أتلانتا كونستيتوشن (Atlanta Constitution) في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ مايلي:

«إسرائيل دولة صغيرة محاطة بأعـداء يقسمون أن يدمروها. إنها لا تملك خيـاراً سوى القتال بكل ضراوة تستطيع حشدها. وقد أظهرت هذه الحقيقة ضبطاً للنفس بشكل لافت للنظر. القوة هي كل ما يحترم جيرانها [٨٤]».

كما أوردت مجلة تـايم (Time) في إحدى افتتاحياتها في عام ١٩٧٠م هذه العبـارات عن إسرائيل والعالم العربي:

«إسرائيل قوة استقرار ديمقراطية عصرية في هذا الركن الفوضوي من العالم والمتخلف تخلفاً قاسيـاً. لقد صنع الإسرائيليون أمـة وجعلوا الصحراء مـزهرة. إن إسرائيل تحتاج دعم الـولايات المتحدة لتبقى، وإذا قدر لها أن تسقط يوماً ما فإن مصالح الولايات المتحدة ستتضرر» [٨٥].

ونشرت تايم أيضاً إعلاناً في عددها الصادر في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٢م قال فيه:

«الذين يملكـونه -أي النفط- لديهم القـدرة على تشكيل الأحداث عبر العالم. مجلـة تايم تواصل مراقبـة مشيخات الشرق الأوسط المتفجر والغنية بالنفط، إنها تجعلك قـريباً من الحكام والثقافات البعيدة التي تملك القوة لتغير طريقة حياتنا [٨٦]».

إن التلـويح لشعب مـا بأن هناك مـن يملك تغيير طريقـة حيـاتـه يتسفز في أعماقـه الحذر والمقاومـة، سيما إن كان هذا الخطـر قادماً من «مشيخات متفجـرة» و«ثقافات بعيـدة». ويتكرر عرض هـذه القوالب النمطية في (الكـارتون) أو (الكـاريكاتور) حيث يصـور العرب على أنهم متخلفون و«كفار» ويظهر العـربي عادة بشارب أو لحية، وأنف معقوف وعبـاءة وكوفية ونظارات سوداء، وربما بـدا حامـلاً خنجراً أو (كلاشينكـوف). أما الخلفيـة فهي عادة صحـراء ومعدات نفط، أو سيارة فخمة [٨٧].

وقد اهتم عدد من الباحثين بصورة العرب والمسلمين في الصحافة الأمريكية ومعالجة أخبار الصراع العربي الإسرائيلي مثل جانيس تيري (Terry) وروبرت ترايس (Trice) وشارلز وونغر

(Wanger) وبيفرلي ماركوس (Marcus). كما اهتم بعض العرب الامريكيين بهذا الموضوع ودستوره، مثل ميخائيل سليمان وجاك شاهين وايدمون غريب. وقد أظهرت معظم هذه الدراسات بشكل عام أن الصحافة الأمريكية تتحيز ضد العرب وتتعاطف مع إسرائيل، حيث صورت العرب على أنهم «غرباء» و«مسلمون متطرفون» و«بدو هائمون» و«غادرون» بينما صورت الإسرائيليين «محبين للسلام» و«نظراء للغربيين» و«معتدلين» و«ديمقراطيين». ومن الناحية العسكرية وصفت الأنشطة المسلحة العربية والفلسطينية تحديداً «بالإرهاب» بينما وصف الغارات الإسرائيلية دائماً بأنها «ضربة وقائية» أو«انتقام»، أو «دفاع عن النفس» . حتى الحملة المنظمة التي نفذتها إسرائيل في أوائل السبعينات لاغتيال القادة الفلسطينيين في لبنان ووصفتها الواشنطن بوست في عددها الصادر في ١٢ إبريل (نيسان) ١٩٧٣م بأنها «أحسن أنواع الإرهاب» لأنها موجهة ضد «أسوأ أنواع الإرهابيين»[٨٨]. ولما قتلت إسرائيل القائد الفلسطيني خليل الوزير (أبو جهاد) في تونس، كتبت الصحيفة نفسها في افتتاحيتها في ١٩ نيسان (إبريل)١٩٨٩م:

«خليل الوزير: أو أبو جهاد (أبو الحرب المقدسة) عاش حياته بالبندقية. في الحقيقة، كانت معه واحدة في يده عندما اغتيل في تونس بواسطة الإسرائيليين حسب التقارير. باعتباره الرجل الثاني في منظمة ياسر عرفات وقائد ذراعها العسكري فقد اكتسب الكفاءة والأهلية كإرهابي. لقد آمن أن الكفاح المسلح ... ضروري للفلسطينيين المطالبين بدولة[٨٩]».

إن كلمة «إرهابي» هنا صادرة عن موقف ثقافي معين وليست وصفاً موضوعياً مجرداً. وكما يقول نعوم شومسكي (Chomsky) فإن نعوت «الإرهاب» و«الانتقام» في صحافة الولايات المتحدة ليست وصفية، وإنما أيديولوجية [٩٠]. وفي تعليق له على «إرهاب الشرق الاوسط والنظام الأيديولوجي الأمريكي» قال شومسكي:

«... توفر هذه الحقائق السياسية الحاسمة الإطار الضروري لأي نقاش حوله «كارثة

الإرهـاب البغيضـة» التي تشير في المصطلحـات العنصريـة للخطـاب الأمـريكي إلى الأعمال الإرهابية التي يرتكبها العرب لا التي يرتكبها اليهود، تماماً كالسلام الذي يعني تسوية تحترم حق تقرير المصير القومي لليهود، لكن ليس الفلسطينيين(٩١)».

ومرة أخـرى فإن وصف العرب والمسلمين بأنهم «إرهـابيون» و«متطرفـون» و«غير عقلانيين» يعني تبرير السيطـرة عليهم، بل شن حملات عدوانية عسكـرية ضدهـم. يقـول شومسكي: «إن نظرة إسرائيل إلى الفلسطينيين على أنهم مخلوقات دنيا بررت قمعهم وقصف مخيماتهم وتشريدهم:

وربما أن كل الفلسطينيين – تعـريفـاً – هـم إرهـابيـون، أو أمهـات إرهـابيين، أو إرهـابيـون مستقبليون، فأي شيء فعل بهم اعتبر أمراً مشروعا(٩٢)».

أما أيدمون غريب (Ghareeb) فيقول إن تحيز الإعلام الأمـريكي ضد العرب يتضح مثلاً في استخـدامه للمصطلحـات الإسرائيليـة، فالقـدس تستعمل بـدلاً من تل أبيب للإشـارة إلى إسرائيل، ويوم «خيبر» يستعمل بـدلاً من حرب رمضان، و«جبـل الهيكل»، يستعمل، بدلاً من المسجـد الأقصى، والإسرائيليـون يـوصفـون بأنهم ضبـاط (Commandos) وقـوات أمن (Security Forces) بينما يوصـف الفلسطينيون بأنهم إرهـابيون (Terrorists) أو محاربو عصابات (Guerillas)(٩٣).

وقد انتقد جون كولى (Cooley) المعالجة الصحفية الأمريكيـة للعرب والمسلمين ووصفها بأنها «مفتقرة بشكل مؤسف إلى العمق والاتزان والإدراك» (٩٤)، وأكد أنه «لاتوجد مجموعة عرقية في أمريكـا تستطيع القبول طوعاً بنفس مـواجهة العرب والمسلمين بشكل عام في وسـائل إعلام الولايات المتحدة»(٩٥). وقد عزا كولي هذه المعالجة السلبية إلى مـا اختزنه الوعي الأمريكي حول العرب والمسلمين من تفسيرات تاريخية وأدب شعبي متوارث.

أما هشام شرابي فيـؤكد أن «مصدر تشويه صـورة العرب في الغرب ليس الجهل فقط، وإنما نـوع محدد من المعـرفة لـه جـذور في العداوة الـدينيـة والعنصريـة للعرب والإسـلام، ولـذا فإن

معلومات أكثر وأفضل حول العرب والإسلام ليست كافية لحل المشكلة»[٩٦].

ويعدد شرابي أسباب الصورة الشائهة للعرب فيقول : «إنها العداء الأيديولوجي للإسلام، وعنصرية «الإمبريالية»، والدعاية الصهيونية، وسلوك العرب أنفسهم[٩٧]».

لكن يبقى العداء التقليدي للإسلام هو المصدر الرئيس لتشويه الصورة الإسلامية والعربية. وتتضح شواهد هذا العداء في كتابات من يُسمون «خبراء الإسلام» في الصحافة البريطانية. أحدهم هو روبرت كيلوري سيلك (Kilori Silk) الذي كتب في صحيفة الديلي اكسبرس (The Daily Expers) في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٩١م أن المسلمين «متخلفون وشريرون» وأضاف : «و إذا كان قول ذلك سيجعلني عنصرياً - فأنا سعيد وفخور بذلك» [٩٨].

خبير آخر هو بير يغرين وورس ثورن (Worsthorne) كتب في صحيفة الصنداي تلغراف (The Sunday Telegraph) في ٣ شباط (فبراير) ١٩٩١م أن الإسلام الذي «كان حضارة عظيمة تستحق المناقشة، انحط الآن إلى عدو بدائي لا يستحق إلى الاستعباد الكامل». أما كوارنزل . أوبرين (O'Brien) فقد كتب في صحيفة التايمز (The Times) الصادرة في ١١ أيار (مايو) ١٩٨٩م واصفاً المجتمع المسلم بأنه «يبدو مثيراً للاشمئزاز بشكل عميق» ، وأضاف:

«... الغربي الذي يزعم أنه معجب با لمجتمع المسلم في الوقت نفسه الذي لا يزال ملتزماً فيه بالقيم الغربية هو إما منافق أو جهول، أو بعض من كليهما. في صميم الموضوع (تكمن) الأسرة المسلمة، تلك المؤسسة المقيتة ... المجتمع العربي والمسلم مريض، وقد كان مريضاً منذ زمن. في القرن الماضي كتب المفكر العربي [؟] جمال الدين الأفغاني: «كل مسلم مريض وعلاجه الوحيد القرآن». لسوء الحظ يزداد المرض سوءاً كلما ازداد تناول العلاج[٩٩]».

وهكذا نرى أن تصوير الإسلام بشكل سلبي ، أو نعت الاتجاهات الإسلامية «بالتطرف» و«الإرهاب» أو اتهام المسلمين عموماً بالتخلف والفوضى، كل ذلك ليس وصفاً موضوعياً بل

هو نابع من ثقافة موقف حضاري من الإسلام.

إن بناء الصـورة عن الأشخاص والأحداث عملية انتقـائية تماماً مثل انتقاء الأخبـار لنشرها وإذاعتها. وقد صرح أحـد أقطاب الصحافة الأمـريكية مرة بأن «الخبر هو الـذي أقول إنه خبر، وأنا الـذي أقدر ما إذا كان جـديراً باطلاع النـاس عليه»[100] . أي يقـوم هذا الصحفي بـدور حارس البـوابة (GateKeeper) فينشر ويمنع وفق مقـاييسـه. الأمـر نفسـه ينطبق على بنـاء الصـورة، فهـو عمليـة انتقـائيـة تخضع «لمقاييـس» الصحفيين التاريخيـة والثقـافيـة والعقـديـة والسياسية.

وإذا تأملنـا مواقف الصحـافة الغربيـة من مأسـاة البوسنة والهرسـك فإننا نشـاهد عشرات الأمثلة على هذه المواقف العقدية: فضحايا المأساة الذين هم المسلمون يساوون بالقتلة الصرب في عبارات منتقاة مثل: «الأطـراف المتصارعة» و«يقتلون بعضهم» و«كراهيـة متبادلة». والمذابح تقوم بها «جميع الأطـراف». وتندر الإشارة إلى عـدم قيام الجيش الحكومي البـوسني بأي مذابح، والسبب في هذا هو الأيديولوجية، فإبـراز مسلمي البوسنة بأنهم ضحايا وفي نفس الوقت شرفاء في مقـاومتهم للعدوان، وحـريصون على بقـاء دولة ذات تعـدديـة سياسيـة وتنوع ثقـافي «يجعل المسلمين يبدون طيبين جداً» .

وبهذا نرى أن بنـاء الصورة وتشكيلها يتأثر بخلفيـة الفرد وثقافته وإطـاره المرجعي، وتقديم الإسـلام والمسلمين بصورة حسنـة ينـاقض كل ذلك، فتُنتقى الأخبـار وتُشكل الصور بنـاء على العداوة التاريخية والـدينية للإسلام، العداوة التي ولدت في القـرون الوسطى ومازالت متقدة إلى اليوم.

خاتمــة

ظل الإسلام في مخيلة الغـربيين وثقافتهم «بضاعة» تنتمي إلى الشرق. لقد نظـروا إليه على أنه جزء من غموض الشرق وقوتـه المدمرة غير العقلانية. يقول إدوارد سعيد: «إن نـوعاً مبسطاً جداً من التفكير يعد امتداداً للاستشراق سيطر على ردود الفعل الغـربية تجاه الإسلام منذ نهاية القرن الثـامن عشر وحتى اليـوم؛ تفكير يقسـم العـالم قسمين غير متسـاويين: كبير و«مختلف» يسمى الشرق، والآخر يسمى الغـرب. ويبرز هذا التقسيم في أي وقت يشهـد احتكاكـاً أو اتصالاً بين الثقـافتين والمجتمعين. ولما كـان الإسـلام «بضـاعـة» شرقيـة، فـإنـه ظل يحتل مكـان «الآخـر» و«المختلف» و«النقيض». لقد نظـر الغرب إلى الإسلام ليس على أنه «منـافس مرعب فحسب، بل على أنه تحدٍ للمسيحية» ويضيف سعيد:

«طوال معظم القـرون الوسطى وخلال بـدايات عصر النهضة في أوروبا، سـاد الاعتقاد بأن الإســلام دين شيطاني، دين ردة وتجديف وظـلام، لم يكن مهماً أن المسلمين اعتبروا محمداً نبيـاً لا إلهاً، الذي كان مهماً للمسيحيين أن محمداً كان نبياً زائفاً، زارعاً للخوف، شهوانياً، منافقاً، وكيلاً للشيطـان. حتى عندمـا دخل عالم الإســلام فترة انحطاط، ودخلت أوروبـا فترة صعود استمـر الخوف من «المحمديـة» . لقد أثـار مجرد حوار العـالم الإسلامي -الأقرب إلى أوروبـا من أي من الديـانات الأخرى غير المسيحيـة - ذكريـات تعدياتـه على أوروبا وقدرتـه الكامنـة على إزعاج الغرب مرة بعد مرة. حضارات الشرق العظيمة الأخرى - الهند والصين من بينهما - ربما اعتبرت مهزومة ونـائية، وبالتالي غير مقلقة دائماً. الإســلام بدا الوحيد الذي لم يخضع للغـرب. بدا العالم الإسلامي مرة أخرى على شفا تكرار فتوحاتـه المبكرة بعد الارتفاعات المفاجئة لأسعار النفط في أوائل السبعينات ، بدا الغرب كله يرتعد(١٠١)».

وقد انتقد سعيد أساليب تناول الإسلام في وسائل الإعلام الغربية، التضليل، التكرار، تفادي التفاصيل، غياب المنظور الحقيقي، والميل إلى فرض قيم وأنماط غير متصلة بالإسلام.

وقال إن هذه الأسباب لا يمكن أن تعزى إلى الإسلام، بل إلى تلك المراكز في المجتمع والإعلام الغربي التي تخدمها وتعززها فكرة هذا النوع من «الإسلام» والنتيجة -كما يقول سعيد- إن العالم أعيد تقسيمه إلى شرق وغرب، «أي أن الأطروحة الاستشراقية القديمة لم تتغير تقريباً»(١٠٢). لم يزل الإسلام يمثل للغربيين والأمريكيين «رجعية منبعثة، لا تنذر بخطورة عودة القرون الوسطى(١٠٣) فحسب، بل بتدمير ما يشار إليه عادة بالنظام الديمقراطي في العالم الغربي».

ويخلص سعيد إلى القول إن التصوير السلبي للإسلام وإظهاره بأنه على صدام مع الغرب «يشكل إطاراً يحد كثيراً من معرفة الإسلام»(١٠٤).

بيد أنه يوجد في واقع المسلمين الحالي ما يغذي هذا التناول النمطي للإسلام: استبداد بعض الحكام، قمع الرأي الآخر، الاستسلام لذلك وتسويغه في أحيان كثيرة، البذخ والترف ...إلخ.

لم تجهد مراكز الاستشراق ووسائل الإعلام الغربية المعاصرة نفسها اختلاق القصص أو «فبركة» الأحداث لتثبت مزاعمها بأن المسلمين «خطيرون» و«ميالون للعنف» و«غير متحضرين»، فسلوك بعض المسلمين كفاها مؤونة ذلك، وأعطاها الفرصة لترد زعمها بأن هناك خطراً كامناً في المجتمعات الإسلامية ويكفي المرء أن ينظر إلى الاقتتال الدائر في أفغانستان، أو المواجهات الدرامية في الجزائر، أوغيرها، ليدرك أن رجال الإعلام والسياسة في العالم الغربي يجدون على أرض الواقع ما يخدم غايتهم في تشويه صورة الإسلام.

وقد ساعد على تنميط صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية: التعميم، والتبسيط، والحكم المتعجل، والتفسير الضحل، للأحداث والتطورات الاجتماعية والسياسية، والمواقف السلبية المسبقة تجاه الإسلام، والتعصب للقيم «الليبرالية» الغربية.

وقد أظهر انفجار أكلاهوما سيتي بولاية أكلاهوما الأمريكية في التاسع نيسان (إبريل) ١٩٩٥م بعض سمات المعالجة النمطية للإسلام. فقد بادرت وسائل الإعلام الأمريكية إلى إلصاق تهمة التفجير «بالمسلمين الأصوليين». ولما اتضحت هوية الفاعلين الأمريكيين البيض سارعت بعض المحطات التلفزيونية إلى تأكيد اتهام «الأصوليين» الذين استخدموا هؤلاء الأمريكيين لتغطية هويتهم، وهو «تكتيك» اعتاد عليه الأصوليين -كما قال مراسل شبكة سي إن إن (CNN) لدى البيت الأبيض.

ويرى عبدالقادر طاش أن هناك عوامل مهنية متعلقة بالعمل الإعلامي الغربي تساعد على التناول النمطي للإسلام والعرب، منها اعتماد وسائل الإعلام الغربية على عدد محدد من المراسلين يقدمون تعليقات سريعة على أحداث لم يستوعبوها ، إضافة إلى عدم إجادة كثير من هؤلاء المراسلين للغة العربية. وضعف إلمامهم بالخلفيات الفكرية والسياسية لما يجري في العالم العربي[١٠٥].

يشير بريان أبليارد (Appleyard) في مقال نشرته له صحيفة الصنداي تايمز (The Sundy Times) إلى أهمية الفهم الغربي للإسلام على النحو التالي:

«لقد فشل الغربي طوال مائة سنة في فهم الشيوعية . وفي النهاية: لم يكن مهماً أن يجد ما يستحق الفهم. وطوال ألف سنة فشل الغرب في فهم الإسلام، هذه المرة فهم أن: نظاماً يسيره الله سيكون دائماً أكثر براعة ومتانة ورشداً من نظام يسيره الاقتصاد وحده[١٠٦]».

لكن الذي حصل بعد فشل الشيوعية هو أن أنظار الغربيين اتجهت كلها صوب الإسلام كعدو بديل يتطلب حشد الطاقات لمقاومته وإخضاعه.

ليس هناك ما يوحي برغبة حقيقية في التفكير بالإسلام والمسلمين خارج إطار العنصرية والتحيز الديني والعاطفة الجارفة، بل على العكس، إن ما يحث اليوم في البلقان وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة يدل على أن نظرة أوروبا في القرون الوسطى إلي الإسلام «على أنه مشكلة» تعود من جديد. لقد أقامت فرنسا الدنيا ولم تقعدها من أجل منديل تضعه فتاة مسلمة على رأسها، لأن ذلك المنديل يمثل الحضارة التي تكرهها وتخافها فرنسا. والموقف الغربي المتفهم للعدوان العسكري الروسي على جمهورية الشيشان، يظهر أن سياسة المدافع والبندقية هي السبيل الوحيد الذي مايزال الغرب يراه للتعامل مع المسلمين، ولن يقبل الغرب مطالبة المسلمين المضطهدين أو الرازحين تحت احتلال أجنبي - بالاستقلال وحرية الاختيار وتقرير المصير لأنهم في نظره غير عقلانيين، وبالتالي فلابد أن يكونوا تحت التحكم.

كل هذه الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين ستظل كما يبدو قائمة، وستظل الفجوة كما هي بين الشرق والغرب، بين الإسلام وحضارته وأتباعه، وبين الغرب وصناع سياسته ووسائل إعلامه.

الهوامش

(1) Edward Said, Orientalism (London: Routledge and Kegan Paul, (1978).

(2) R. D. Hiebert, D. Ungurait and T.W. Bohn, Mass Media IV : An Introductionto to Modern Communication (New York : Longman, 1985).

(3) Dennis Davis, Mass Comunication and Every day life (New York, 1982).

(4) James Wohz A Histroical Perspective on "Early Mission" to Muslims, Musilm World (July 1971).

(5) Albert Hourani, Europe and the Middle East (Berkely and los Angeles, Ca: University of California Press, 1980).

(٦) ميخائيل سليمان، صورة العرب في عقول الأمريكيين ، الطبعة الأولى، ترجمة: عطا عبدالوهاب (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧) ص٢٢ -٢٣.

(7) Richard Southern, Western Views of Islam In The Middle Ages (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1962), pp. 14- 15.

(8) Ibid, pp. 3-4.

(9) Ibid, pp. 3-4.

(10) Ibid, pp. 27-28.

(١١) حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، الطبعة الأولى، ترجمة: عطا عبدالرحمن (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨) ص٢٦-٢٧.

(12) Southern, Western Views of Islam In The Middle Ages , p. 37.

(١٣) محمود حمدي زقزوق، الأستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الطبعة الأولى (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية في دولة قطر، ١٤٠٤) ص٢٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص٢٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٧.

(16) Southern, Western Views of Islam In The Middle Ages , p. 57.

(١٧) أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، الطبعة الثانية (لندن: المنتدى الإسلامي، ١٤١١) ص٢٦، وزقزوق، الأستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٢٨.

(18) Southern, p. 72.

(19) Ibid., p. 74.

(20) Southern, pp. 83 - 84.

(21) Southern, pp. 86 - 98.

(٢٢) ساري، مصدر سابق، ص٧٦ .

(23) Said, Orientalism.

(24) Sari, J Nair, The Arab and English (London: Longman, 1979) p. 26.

(25) Ibid., pp. 27 - 28.

(26) Ibid., pp. 31 - 33.

(27) Ibid., pp. 34 - 37.

(28) Ibid., p. 42.

(29) Said, Orientalism, p 76.

(30) Nasir, Ibid., p. 74.

(31) Ibid., p. 52.

(32) Muhsin J. Ali, "The Arabic Nights in Eighteenth Cuntry English Criticism" Muslim World (January 1977) p. 22.

(٣٣) رنا قباني، أساطير أوروبا عن الشرق: لفق تسد، الطبعة الثالثة، ترجمة: د. صباح قباني (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٣) ص٤٧ - ٦٦.

(34) Said, Orientalism, p 223.

(35) Ibid.

(36) Nasir, Ibid., p. 61.

(37) John W. Hollenbach, " The Image of the Arab in Nineteenth Cuntry English and American Literature," Muslim World (January 1972).(30) Nasir, Ibid., p. 74.

(٣٨) قباني، مصدر سابق، ص٧٦.

(39) Hollenbach, Ibid.

(40) Nasir, Ibid., p. 65.

(٤١) قباني، مصدر سابق، ص٧٦.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٧٥.

(43) Hollenbach, Ibid., p 199.

(44) Ibid., p. 200.

(45) Nasir, Ibid., p. 102.

(46) Hollenbach, Ibid., p 200.

(47) Ibid., p. 201.

(48) Nasir, Ibid., p. 73.

(49) Ibid., p. 74.

(50) Said, Orientalism, p. 196.

(51) Hollenbach, Ibid., p 203.

(52) Ibid., p. 203.

(53) Nasir, Ibid.

(54) Nasir, Ibid., and A. Hournani, Ibid.

(55) Nasir, Ibid., p. 85.

(56) Ibid., p. 89.

(٥٧) قباني، مصدر سابق، ص٧٦ .

(58) Zahra Freeth and H. V. F. Winstone Explorers of Arabia from the Renaissance to the End of Victorina Era (London: George Allen & Unwin, 1978), p. 230, and Nasir, Ibid, p. 88.

(59) Said, Orientalism, p. 190.

(٦٠) قباني، المصدر نفسه، ص١٠٧ .

(٦١) المصدر نفسه، ص٧٥ .

(٦٢) المصدر نفسه، ص٩٧ .

(٦٣) المصدر نفسه، ص٨٩ .

(٦٤) المصدر نفسه، ص١١٥ .

(65) Said, Orientalism, p. 207.

(٦٦) قباني، مصدر سابق، ص١٢٦ .

(٦٧) المصدر نفسه، ص١١٧ - ١١٨ .

(68) Malcolm Brown and Julia Cave, A Torch of Genius: The Life of T.E Lawrence (New York: 1994).

(69) Ibid.

(70) Nasir, Ibid., p. 126.

(71) Nasir, Ibid., p. 128.

(72) Bernard Lewis, "Communism and Islam" In: Walter Zeev Laqueur, (ed), The Middle East in Transition: Studies in Contemporary History (New York: Free Port, 1971) p. 312.

(73) Lewis, Ibid.

(74) Edward Said, " The Essential Terrorist" E. Said and C. Hitchens (ed), Balming the Victims: (London: Verso, 1988), P. 156.

(75) Jack Shaheen "The Arab Stereotypes on Television". U. The Link Vol. 13, No. 2(April / May, 1980) pp. 4 - 10.

(76) Jack Shaheen "The Ugly Arab: U. S. TV Image "The Middle East (London), May 1978.

(77) Jack Shaheen "The Arab: TV's Most Popular Villain", Christian Century, December 13, 1978.

(78) Jack Shaheen "Aamerican Television: Arabs in Dehumanizing Roles" in : Hudson Micheal C. and Ronald G. Wolfe (eds), The Amerian Media and The Arabs. (Washington, D.C. : Georgetown Univ., Center of Contemporary Arab Studies, 1980), p. 40.

(79) Jack Shaheen " Images of Saudis and Palestinians: A Review of Major Documentaries, in : William Adam (ed.), Television Coverage of the Middle East (Norwood, N J: Ablex publishing Crop. 1981).

(80) Edward Said, Covering Islam: How The Media and Experts Determine How we See the rest of the World (New York: Pantheon

Books, 1981), p. 26.

(٨١) جاك شاهين، «المصلحة من تشويه صورة العربي والمسلم في إعلامهم» الحياة ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٤ .

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٨٤ .

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

(84) Trice, " The American Elite Press and the Arab Israeli conflict." Middle East Journal, Vol. 33 (Summer 1979), p. 317.

(85) Edmond Ghareeb " Arab Stereotyping in American Media", The Arab Image in Western Mass Media. (London: Morris International, 1979)., p. 65.

(86) Soheir A. Morsy, "The Bad, The Ugly, The Super - Rich, and the Exceptional Moderate: U. S. Popular Images of the Arabs", Journal of Popular Cultre, Vol. 20, No. 3 (Winter 1986), p. 15.

(87) Ghareeb, Ibid., p. 71.

(88) Trice, Ibid.

(89) The Washington Post, editoril (April 19, 1989). See also: Ahmad Al-saeed, "Covering the Palastinian Intifadah in three U. S. Elite News-papers Between December 14, 1987 and May 18, 1988 (M. A. Thesis, Southern Illinios University, Carbondale, 1988).

(90) Noan Chomsky, The Fateful Triangle : The United States, Israel & The Palastinians (Boston, Ma: South End Press, 1983), p. 188.

(91) Noan Chomsky , "Middle East Terrorism and The American

Ideological System, "Blaming the Victims, p. 99.

(92) Chomsky, The Fateful Triangle, p. 224.

(93) Ghareeb, Ibid, pp. 64 - 66.

(94) John K. Cooley, "The Nwes Form The Middle East: A Working Approoch" Middle East Journal, (Autum 1981), p. 471.

(95) Ibid., 468.

(96) The Arab Image in Western Mass Media, p. 175.

(97) Ibid,. p. 167.

(98) Akbar S. Ahmed, Postmodernism and Islam : Predicament and Promise, (London & New York : Routledge, 1992), p. 188.

(99) Ibid,. pp. 188- 189.

(100) Edith Efron, The new Twisters. (Los Angeles, Ca: Nash Puplishing, 1971), p. 6.

(101) Said, Covering Islam, pp . 4 - 5.

(102) Ibid., p. 40.

(103) Ibid., p. 51.

(104) Ibid., p. 155.

(١٠٥) عبدالقادر طاش، الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، الطبعة الأولى، (الرياض: شركة الدائرة للإعلام المحدودة، ١٤٠٩) ص١٠٣.

(106) Bryan Appleyard, A We Ignore March of Islam Only at our Peril", The Sunday Times, January 12, 1992, p. 2.

المراجـــع

أولاً: المراجع العربية.

- ساري، حلمي خضر (١٩٨٨) صورة العرب في الصحافة البريطانية: دراسة اجتماعية للتغير والثبات في مجمل الصورة. ترجمة: عطا عبدالوهاب. الطبعة الأولى. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- سليمان، ميخائيل (١٩٨٧) صورة العرب في عقول الأمريكيين ترجمة: عطا عبدالوهاب. الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- شاهين، جاك (١٩٩٤) "لمصلحة من تشويه صورة العربي والمسلم في إعلامهم"، الحياة، كانون الأول (ديسمبر).

- قباني، رنا (١٩٩٣) أساطير أوروبا عن الشرق: لفق تسد. ترجمة: صباح قباني. الطبعة الثانية، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

- زقزوق، محمود حمدي (١٤٠٤) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. الطبعة الأولى. الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية.

- طاش، عبدالقادر (١٤٠٩) الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي. الطبعة الأولى. الرياض: شركة الدائرة للإعلام المحدودة.

- غراب، أحمد عبدالحميد (١٤١١) رؤية إسلامية للاستشراق. الطبعة الثانية. لندن: المنتدى الإسلامي.

ثانياً: المراجع الإنجليزية.

- Ahmad, A. S. (1992) Postmodernism and Islam: Predicament and Promies. London & New York : Routledge.

- Ali, J. (1977) " The Arabian Nights in Eighteenth Century English Criticism", Muslim World. Vol. LXVII, No. 1 (January, pp. 13-32).

- Alsaeed, A. (1988) Covering the plastinian Intifadah in three U. S. Elite Newspapers Between December 14, 1987 and May 18 1988. A Master Thesis. Southern Illinois University, Carbondale.

- Appleyard, B. (1992) " We Ignore March of Islam only at our Peril", The Sunday Times. January. 12.

- Barrin, J. (1992) " Algeria's Islamists Tread Warily, "Guardian Weekly. January 12.

Brown, M. and J. Cave (1994) A Touch of Genius : The Life of T.E. Lawrence. New York.

- Chomsky, N. (1983) The Fateful Triangle: The United States, Israel, & The Palstinians. Boston, Ma: South End Press.

- Chomsky, N. (1988) "Middle East Terrorism and the American Ideological System" E. Said and C. Hitchens (ed.) Blamimng the Victims: Spurious Scholarship and the Plastinian Question. London: Verso.

- Kooley, J. K. (1981) " The News from the Meddle East: A Working Ap-

procah" Meddle East Journal. Vol. 35, No 4.

- Davis, D. (1982) Mass Communication and Everyday life New York.

- Efron, E. (1971) The New Twisters. Los Angeles, Ca: Nash Puplishing .

- Freeth, Z. and H.V.F. Winstone

- Hiebert, R. D. ; Ungurait, D. & T.W. Bohn (1985) Mass Media IV: An Introduction to Modern Communication. New York: Longman.

- Ghareeb. E. (1979)" Arab Stereotyping in the American Media "Arab Image in Western Mass Media. London: Morries International.

- Hogg, A. (1992) "Shadow of the Mullah Falls Over Algeria, "The Sunday Times. January 5.

_ Hollenbach, J. W. (1972) "The Image of the Arab in Nineteenth Century English and American Literature, "Muslim World. Vol. LX11, No. 3 (July, pp. 195 - 208).

Hournia A. (1980) Europe and the Middle East. Berekely and Los Angeles, Ca: University of California Press.

- Levin, B. (1992) "One Law for the Muslims." The Times. January 18.

- Lewis, B. (1971) "Communism and Islam," W.Z. Laqueur (ed.) The Middle East in Transition: Stadies in Contemporary History. New York Free Port.

- Lewis, B. (1972) "Islamic Conecpts of Revolution," P. J. Vatikiotis, (ed.)

Revolution in the Meddle East, and Other Case Studies; Proceedings of a seminer. London: George Allen & Unwin.

- Morsy, S.A. (1986) "Thr Bad, The Ugly, The super Rich, and the Exceptional Moderate: U. S. Popular Image of the Arabs," Journal of Popular Culture. Vol. 20, No. 3 (Winter, pp. 13 - 29).
- Nasir, S. J. (1979) The Arabs and the English. London: Longman.
- Rachty, G. (1980) "The Arab Image in the American Media" presented at the World Midia Congerence, New York.
- Said, E. (1978) Orientalism. London: Roultedge and kegan.
- Said, E. (1981) Covering Islam : How the media and the Experts Determine How We See the Rest of the World. New York: Pantheon Books.
- Said, E. (1988) " The Essential Terrorist," E. Said and C. Hitchens (ed.), Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question. London: Verso.
- Shaheen, J. (1978) The Ugly Arab: U. S. TV Image, "The Middle East. London.
- Shaheen, H. (1980) " The Arab Stereotype on Television, " The Link." Vol. 13, No. 2 (April / May, pp. 4 - 10).
- Shaheen, J. (1978) "The Arab: TV'S Most Popular Vollian" Christian Century December 13.
- Shaheen, J. (1980) " American Television: Arabs in Dehumanizing

Roles," H. Michael C. and R. G. Wolfe (ed.) The American Media and the Arabs. Washinton, D. C. Georgtown Univ., Center of Conternporary Arab Studies.

- Shaheen, J. (1981) " Images of Saudis and Palastinians: A Review of Major Documentaries" W. Adam (ed.) Television Coverage of the Middle East. Norwood, NJ: Ablex publishing crop.

- Staely Reed, "Behind the Lines of the Jihad," Business Week. May 20, 1996.

- The Times. editorial, January 13, 1992.

- The Washington Post, editorial, April, 19, 1989.

_ Trice, R. (1979) "The American Elite Press and the Arab Isreali Conflict" Meddle East Journal. Vol. 33 (Summer, pp. 304- 321).

- Waltz, J. (1971) "Historical Perspective on "Early Missions" to Muslims," Muslim World. Vol. LXI, No. 3 (July, pp. 170 - 186).